متابعة

هبة بو عكر عن بيروت انطلاقاً من ضواحيها

التخطيط المديني وشبح «الحرب المُنتظَرة»

في المحاضرة التي عُقدت مؤخراً ببيروت، تناولت الباحثة اللبنانية موضوع كتابها عن التخطيط المديني لضواحي العاصمة، ودور الأحزاب الطائفية وأذرعها من العقاريِّين والمهندسين في توجيه المخطط، لإبقاء منطق الحرب قائماً حتى في زمن السِّلم

بيروت ـ **أنس الأسعد**

«كيف نُخطّط للمُدن في ظلّ شبح حرب حاضر دائماً؟»، بهذا التساؤل المُوجَز حدَّد عالِم الاجتماع الإيراني الأميركي آصف بيات موضوع كتاب الباحثة اللبنانية هبة بو عكر، «لحرب مُنتظَرة: تخطيط حدود بيروت» («منشورات جامعة ستانفورد»، 2018)، الذي صدرت ترجمتُه حديثاً عن «الفرات» بتوقيع عبد الرحمن أياس. وقد عادت الأستاذة المُساعدة في الكلّية العُليا للعمارة بـ«جامعة كولومبيا»، لتتوسّع في تفصيل هذا المفهوم وشرحه خلال تقديم كتابها إلى القرّاء، في مُحاضَرة عُقدت مساء الاثنين الماضي في «مكتبة برزخ» ببيروت، بالتعاون مع «استديو أشغال عامّة».

ترسيم عقاري لحدود طائفية

انتهت الحرب الأهلية اللبنانية قبل أكثر من ثلاثين عاماً، لكنّ مفاعيلها وارتداداتها لم تنتهِ بعد، هذا ما تقوله بو عكر في كتابها الذي تُعاين به ضواحي العاصمة اللبنانية الجنوبية الشرقية: من دوحة عرمون جنوباً، مروراً بصحراء الشويفات (هي منطقة سكنية وليست صحراء)، وحتى حي ماضي/ مار مخايل؛ هذا الخطّ المعروف بـ«طريق صيدا القديمة» الذي يُرسّم حدود الضاحية الجنوبية لبيروت، معقل «حزب الله»، تشتغل على أطرافه «حروب تخطيط مديني»، وصراعات سياسية عميقة تُذكِّر بذلك «الخطّ الأخضر» الذي فصَل بيروت، طائفيّاً، إلى شرقيّة وغربيّة بين 1975 و1990. يكتسب الكتاب أهمّيته من كونه مسحاً ميدانياً إثنوغرافيّاً استوحى عنوانه من النُّذر بـ«حرب مُنتظَرة» وشائعات العسكرة، لكنّه لا ينتظرها بقدر ما يتعامل معها على أنّها قائمة بالفعل، «فبمجرّد أننا نُخطّط الواقع تحسُّباً للحرب نكون بذلك قد استدعيناها وحوّلنا حياتنا إلى امتداد لها»، فضلاً عن أنها قائمة بالفعل، وعلى هيئة عدوان إسرائيلي هذه المرّة مستمرّ منذ تسعة أشهر.

نبقى مع أجواء ما بعد الحرب الأهلية، وبزوغ «سوليدير» («الشركة اللبنانية لتطوير وإعادة إعمار وسط بيروت») التي تعدّت وظيفتَها من كونها شركة إلى «خطاب»، أو «وعد بمستقبل أفضل، حيث الأبنية المُلوَّنة والشوارع المُضاءة»، ليتبيّن فيما بعد أنّ هذا الخطاب ليس أكثر من ترسيم عقاري للحدود الطائفية في لبنان، إنّما بأذرُع وأدوات تنفيذ سياسية. من هُنا تنطلق بو عكر من موقع طرَفي يقرأ الضواحي وحدود المدينة بالعكس من وعود إعادة الإعمار.

إنّ منطق الحرب المنتظرة، كما تُوضّح الباحثة: «يأخذ طابع الحرب في زمن السِّلم، لا تخوضها الطوائف بالبنادق والدبّابات، بل بعمليات بيع وشراء الأراضي والشقق والمُمتلكات، الأمر الذي يشبك الحدود ببعضها، فيتداخل ما هو سكني بما هو صناعي في مناطق فقيرة على الأغلب، تُسلِّم أمرها لأحزاب سياسية طائفية (ذات أصل مليشياوي) تعمل داخل الحكومة وخارجها، وعلى رأسها: حزب الله عن الشيعة، وبشكل أقلّ حركة أمل، وتيّار المستقبل عن السنّة، والحزب التقدمي الاشتراكي عن الدروز، والكنيسة المسيحية المارونية وما يرتبط بها من أحزاب: التيّار الوطني الحرّ، والقوّات اللبنانية، والكتائب».

هبة بو عكر أثناء المُحاضَرة (العربي الجديد)

النزاع على الأنقاض وجنون البناء

وبالنظر في عُمران المناطق الثلاث المذكورة أعلاه، تخلُص الباحثة إلى ثلاث علامات للنمو المديني: ازدواجية الأنقاض، وتخريم الفرز، والحدود المنفوخة (عناوين الفصول الثاني، والثالث، والرابع من الكتاب). ويُمكن أن يُساعد التمثيل في فَهم هذه المصطلحات الاختصاصية، فازدواجية الأنقاض، وفقاً للباحثة، «تتّضح من خلال اتخاذ الأنقاض والبيوت المتضرّرة من الحرب مساكن مُرمّمة ترميماً ناقصاً وعلى عجَل، وهذا ما حدث في حي ماضي/ مار مخايل، الذي تحوّلت بعض بيوته المنخورة بالرصاص إلى منطقة شقق فخمة باهظة الثمن، بعدما لفَظت كلّ من نزَح سابقاً إلى المنطقة، في حين أنّ عمارات أُخرى ظلّت على ما هي عليه، لأنّ طرفاً طائفياً (الكنيسة) منع آخَر (العقاريّين الشيعة) من استكمال التطوير العقاري خوفاً على حدوده»، وتحت هذا تندرج محاولات حَظْر بعض البلديات بيع الأراضي بين الطوائف. وإلى الجنوب من حي ماضي تقع صحراء الشويفات، حيث يتمثّل طرفا خطّ التماس بـ«التقدّمي الاشتراكي» و«حزب الله»، وتُنبّه بو عكر إلى أنّ هذه المنطقة كانت خلال الحرب الأهلية أرضاً زراعية تخضع لحراسة مُلّاكها الدروز، «لكنّ مشاريع الإسكان ذات التكلفة المنخفضة بدأت بالانتشار فيها بعد نهاية الحرب الأهلية، لتستوعب بعد ذلك العائلات المُهجَّرة من حي ماضي، وهذا ما دفع بالحزب التقدمي الاشتراكي إلى تصنيفها منطقة صناعية، وفي الوقت نفسه ضغط حزب الله لتصنيفها منطقة سكنية، ومع الأخذ والردّ السياسي بين الجهتين استمرّت قوانين البناء بالتغيُّر لفترة تجاوزت الاثني عشر عاماً»، وهذا ما تُسمِّيه بو عكر بـ«التخريم».

قراءة إثنوغرافية للضواحي بعيداً عن خطاب إعادة الإعمار

«تنمية» مبنيّة على أساس طائفي أدّت إلى تشوّهات حضرية

أمّا الحدود المنفوخة، أو جنون البناء، فتُعرّفها بو عكر من خلال منطقة دوحة عرمون، أبعد الضواحي الثلاث عن بيروت، التي يتطرّق لها الكتاب: «حيث تمتزج فيها العمارات الفخمة مع مظاهر الفقر المُدقع، مما يجعل المنطقة تنتفخ من دون تنظيم، المطوّرون العقاريون ينفخون المخطّطات السكنية على حساب المساحات العامة، وإلى هذه المنطقة عادت العائلات السنّية التي لم تعد قادرة على العيش في بيروت حين كان الوسط العقاري للمدينة يخضع، بمعيّة رئيس الوزراء الأسبق، رفيق الحريري، لعمليات إعادة الإعمار، وهُنا جاء دور تيّار المستقبل ليُعزّز ربط دوحة عرمون ببيروت، وكذلك صيدا جنوباً، من خلال الاستثمار بمشاريع حكومية، والاهتمام بالبنى التحتية، مستثنياً من ذلك المناطق التي لا تشملها قواعد السياسة».

بعد هذا العرض تخلُص بو عكر إلى أنّ «المخطّطين المدينيّين أصبحوا مجرّد تقنيّين، وأدوات بيد الأحزاب الطائفية، ومتماهين تماماً مع منطق الحرب المنتظرة، وهذا ما أدّى إلى فشل تنموي ذريع». وتُتابع: «هذا لا ينطبق على بيروت وحدها، فالمستقبل المديني حول العالَم مُتنازَع عليه، مع دعوات جدّية لإعادة تشييد الجُدران بالمعنى الحرفي لإبعاد غير المرغوب فيهم، وليست الإبادة الجماعية في غزّة، وإغراق اللاجئين بمياه المتوسّط، سوى مقدّمات مُرعبة لتلك التقنيات الأدقّ».

خارج التشوّهات القائمة

في الفصل الأخير من كتابها «لحرب مُنتظَرة: تخطيط حدود بيروت»، تُحاول المعمارية اللبنانية هبة بو عكر أن تُقدّر مدى ارتباط التخطيط المديني بالانتفاضات والتغيير، وتُحيل إلى تجارب نقابيّة بيروتية كسَرت نمطية التحرُّك الطائفي، قبل وبعد انتفاضة 17 تشرين الأول/أكتوبر 2019. وبهذا يتّضح مدى السّعي الجادّ في الكتاب لتفكيك الواقع القائم، والرغبة في تحقيق نمط عيش كريم خارج سجن «الحرب المُنتظَرة» وتشوُّهاته.

معرض

ماري سولي استعادة فنانة طليعية من الهامش

تراث السكان الأصليّين برؤية حداثوية

يضيء المعرض، الذي يستمر حتّى مطلع العام المُقبل، على موقع الفنانة في تأسيس المفاهيم التقليدية لتراث السكان الأصليّين والفن الأميركي الحديث

نيويورك ـ **العربي الجديد**

في بداية القرن الحالي، تمّت استعادة الفنانة الأميركية ماري سولي (1896–1963)، التي تنتمي إلى السكّان الأصليين، وظلّت سيرتها الذاتية غير معروفة إلى حدّ كبير حتى ظهرت دراسات ومؤلفات عدّة حولها مؤخراً، ومنها كتاب أصدره ابن شقيقها فيليب ج. ديلوريا عام 2019، بعنوان «أن تصبح ماري سولي» يضيء على تجربتها المتفرّدة في التجريد. استعادة جديدة للفنانة الطليعية في معرض يحمل عنوان «الأصلي الحديث» الذي يُفتتح الخميس، الثامن عشر من الشهر الجاري، في «متحف متروبوليتان للفنون» بنيويورك، ويتواصل حتى الثاني عشر من كانون الثاني/يناير من العام المقبل. يُنظر إلى سولي كونها صاحبة تجربة ثورية في دمج الجلود الخام المدبوغة ومنسوجات النافاجو؛ الخاصة بالشعوب الأصلية في منطقة جنوب غرب الولايات المتحدة، وبين تيارات الفن الحديث الغربية مثل الآرت نوفو (الفن الجديد) ومدرسة باوهاوس، وغيرهما، خلال الفترة الممتدّة بين عشرينيات وأربعينيات القرن الماضي.

يضيء المعرض الفردي الأول الذي ينظّمه «متروبوليتان»، على موقع الفنانة في تأسيس المفاهيم التقليدية لفن السكان الأصليين والفن الأميركي الحديث، ومساهماتها المتعدّدة والغنية من خلال رسوماتها المصمّمة بتعقيد وألوان زاهية، رغم أنّها عاشت معظم حياتها منعزلة عن الأوساط الفنيّة.

ولدت سولي باسم سوزان مابيل ديلوريا، في محمية ستاندنغ روك في ولاية داكوتا الجنوبية، ثم انتقلت للعيش في مدينة يانكتون بالولاية نفسها، وهناك بدأت مزج عناصر تراثية مع وسائط وأساليب حديثة ورسمت مجموعة شخصيات سياسية وثقافية في سلسلة بورتريهات أسمتها «مطبوعات شخصية»، منها خمسة وعشرون رسماً يقدّمها المعرض، بالإضافة إلى مواد عائلية أرشيفية وأعمال أخرى. يعكس المعرض جانباً من الحياة اليومية، وواقع الفن في أوائل القرن العشرين، في لحظة كان يصعد فيها فن السكان الأصليّين والفن الأميركي الحديث بالتوازي، كل منهما بشكل مستقل، من خلال المعارض التي نظّمت في تلك المرحلة. لكن سولي صاحبة الظهور الخافت لم تر حدوداً فاصلة بين الفنّين، فالحداثة بالنسبة لها ولمعظم فناني السكان الأصليين حالة استعمارية قسرية، ولم يكن أمامها سوى أن تكون فنانة أميركية بمعنى مزدوج يحمل ثقافتين مختلفتين معاً، وهو الخيار الذي تبناه الفنانون الذين ينتمون إلى الشعوب الأصلية بعد ذلك.

في سلسلة «مطبوعات شخصية» نفّذتها سولي خلال الثلاثينيات، استخدمت قلم الرصاص الملوّن والغرافيت للرسم على الورق، إذ رسمت الروائية والشاعرة غيرترود شتاين، ونجم البيسبول بيب روث، والكاتبة المسرحية والممثّلة كورنيليا أوتيس سكينر، وأسقف الكنيسة التي كان يرتادها الأميركيون «الهنود» في داكوتا، وغيرهم. بلغ عدد هذه البورتريهات نحو 134 رسماً، تشكّل سجلاً بصرياً لثقافة المجتمع الأميركي خلال فترة الكساد الكبير، مع انتشار الفقر والبطالة والجوع والاضطرابات الاجتماعية في العديد من الولايات، وازدياد العنف والتمييز ضدّ الأقليات التي عانت أكثر من غيرها في الحصول على المسكن والطعام. شغل هذا الموضوع سولي وشقيقتها، عالمة الأنثربولوجيا واللغة، إيلا ديلوريا، وهيمنت على نقاشاتهما آنذاك مسائل التطوّر الثقافي والأعراق التي ضغطت على الفكر الاجتماعي في أوائل القرن العشرين.

يعكس الحياة اليومية وواقع الفن في أوائل القرن الماضي

إيلا ديلوريا دعمت شقيقتها من أجل أن تجد لها موقعاً في سوق الفن، ما دفع سولي أن تدرس الفن بمفردها من دون دراسة أكاديمية منتظمة، وتفرّدت تجربتها عبر تضمين أعمالها التقاليد الجمالية النسائية للشعوب الأصلية في داكوتا، واستيعابها للتجريد الذي كان في بداياته، وبدا لافتاً أنّها لم تقدّم تراث شعبها على نحو غرائبي وفانتازي، بل كأنه تجديد له ضمن رؤية حداثوية.

ماري سولي

من المعرض

إضاءة

بين قاموسي المشرق والمغرب

نَسب الترجمة

رغم استعمالنا لغة واحدة، يطالبنا الناشرون العرب، نحن المترجمين، باستعمال قاموس لغوي مغاير للمتداول في المشرق، كأنّنا نتكلم عربية أخرى

مزوار الإدريسي

عمل للفنان المغربي نور الدين ضيف الله

يطمح بعض المؤلّفين في كلّ أجناس الكتابة الإبداعية إلى تحرير نصّ على غير مثال، مُفصِحين عن رغبة أكيدة لديهم في التفرّد عن سابقيهم بله مُعاصِريهم، وآمِلين في أن تكون ذاتُهم وحدَها المَرجِع الوحيد لهم، وأنْ يتّخذَهم الآخَرون مرجِعاً يُحال إليه عند الكتابة.

ولا يخفى أنَّ نظير هذا الطموح مشروع، خصوصاً إذا ما أفلح في أن يستقطب قُرّاء يقبلون بحساسية في الكتابة أصليَّة تكون هي أصل ذاتها، أي لا سند لها ولا أصل في تاريخ الإبداع الأدبي.

ويستعصي على مؤرّخ الأدب وعلى الناقد الباحث العثور على مثال لمبدع تُبرِز كتابتُه تحقُّقاً نصيّاً لهذا الحُلم، لأسباب عديدة ووجيهة، لعلَّ أوّلها أنّ الكتابة في ذاتها تتوسّل بلغة تتداولها الجماعة المتكلّمة. وأنها مشترَك بين أفراد الأخيرة، وتزخر بثقافة مجتمعها من أمثال، ومتلازمات لفظية، وحِكم، ومسكوكات لغوية، وتشبيهات وبنيات تركيبية وغيرها. وأنه يستحيل على أيّ كاتب أن يبتكرها وحده، لأن اللغة منتَج اجتماعي يَضمن التواصل بين أفراد الجماعة اللغوية. ولا يسَع الفرد سوى أن يُوظِّفه، وأن يجتهد في أن يتميَّز داخِله بالتَّحويل فيه، والتنويع عليه فقط، ولا قِبل له بالانسلاخ عنه.

واضح أن الانتساب إلى اللغة وثقافتها ينجم عنه انتساب في مضمار الكتابة أيضاً، وظهور تقاليد أدبية ومدارس وتيارات، لَها حساسية تَطبع ما يَصدُر عن مجموعات معيّنة ضمن اللغة نفسها. ويستطيع النقاد الانتباه إليها، والتمييز بينها، ورصد خصائصها، كما هو الشأن في أدبنا الجاهلي، مثلاً، مع مدرسة الحوليات الشعرية، التي تزعَّمها زهير بن أبي سلمى. ويَصدُق الشيء نفسُه على الرواية الغربية، التي يُعترَف ضمنَها بوجود تياريْن في كتابتها، انبثقا عن ثِربَانتيس، وتزّعم كل واحد منهما دوستويفسكي الروسي وفلوبير الفرنسي.

ونجد للنسب في الكتابة تجلّيّاً آخر، يُمكن أن نستدلّ عليه بما في الرواية الإسبانية، مثلاً، من صلة بين بنيتو بريث غالدوس (1843-1920)، بسلسلته الروائية التي تُعرَف بـ«حلقات وطنية»، وألمودينا غرانديس (1960-2021) بسُداسيتها المعروفة بـ«حلقات حرب لا تنتهي». فضلاً عن أن وجود مدارس في الكتابة مثل «جماعة أبولو»، أو «الرابطة القلمية»، أو «العصبة الأندلسية»، أو «مدرسة الديوان»، أو غيرها، هو إفصاح عن انتساب إلى خط معيّن في الكتابة ذي رؤية وجودية وجمالية.

ثمة اختلاف بين مُنجز الترجمة في المشرق ونظيره في المغرب العربي

ويتهيّأ لي أن لا شيء يحول بيننا والتساؤل عن إمكان الحديث عن تيارات في الترجمة، وعن مدارس واتجاهات فيها، على غرار ما في الأدب، ما دامت قضايا الترجمة من قضايا الأدب، أي عن إمكان أن نعثر على خطّ في التفكير في الترجمة، وعن أسلوب في ممارستها، يكونان تعبيراً عن اختيارات جمالية ووجودية لتَكتُّل لبعض مُترجمي الأدب والفكر، مِن غيْرِ المترجِمين المُحلَّفين، تكون لديهم اقتناعاتٌ يتبنَّونها، وتؤلِّف فيما بينهم في إطار جمعي يُقدِّمهم بصفتهم أصحاب حساسية ترجمية على حدة.

حقيقة أنه لا أثر بتاتاً لأي شيء من هذا القبيل في الغرب، عِلْماً بأنه الفضاء الذي يُصدِر آلاف الكُتُب المترجَمة سنوياً، والمحتَضِن لأبرز مدارس وكليات الترجمة ونظرياتها. لكن هل عدم توافُر ذلك لديه يعني ضِمْنا عدم إمكان وجوده لدينا؟

الواقع أن المتأمِّل في واقع الترجمة العربية قد يعثر على اختلاف بيِّن ما بين مُنجزها في المشرق العربي ونظيره في المغرب العربي. هذا ما يَذهب إليه بعض الناشرين العرَب، فعلى الرغم من استعمالنا لغة واحدة، فإننا نحن المترجِمين نجد أنفُسَنا نُطالَب من قبلهم بأن نَستعمل قاموساً لغوياً مغايراً للمُتداوَل في المَشرق، حتى لكأننا نتكلّم في المَغرب العربي لغة عربية أخرى.

أتعني ملاحظات هؤلاء الناشرين العرَب أن لدينا في المغرب العربي مدرسةً في الترجمة ذات نسب مغايِر؟ وما المعايير التي اعتمدوها في ضبط اختلافنا عن أشقائنا من المترجمين المشارقة؟ وهل نُفيد من ذلك وجود قطيعة أخرى بين المغربي والمشرقي في الترجمة على غرار ما ارتآه المفكّر محمد عابد الجابري في مضمار الفكر بين جناحي العالَم العربي؟ إنها قضيّة تستحق التدبُّر.

(أكاديمي ومترجم من المغرب)

فعاليات

يُقام عند الثامنة والنصف من مساء الخميس المقبل، في مسرح الأوبرا بمدينة دمنهور المصرية، حفل للفنانة **حنان ماضي**، ضمن فعاليات **المهرجان الصيفي** التي تنظّمها «دار الأوبرا المصرية». بدأت الفنانة مسيرتها في الثمانينيات، ولحّن لها ياسر عبد الرحمن وعمر خيرت، وأصدرت عدة ألبومات، منها: «إحساس» و«شباك قديم».

يُفتتح عند الثامنة من مساء اليوم الخميس، في «غاليري سربنتين» بلندن، معرض **بنات النهر** للفنان المصري، المقيم في بريطانيا، **أدهم الفرماوي** (1981)، ضمن تظاهرة «ماراثون البيئة اللانهائية» التي تتواصل حتى نهاية الشهر الجاري. يدمج الفنان في مشاريعه البصرية بين الصور المتحرّكة والأعمال التركيبية والطباعية، ويطرح علاقة الرأسمالية بتلوّث المياه.

حتى الخامس والعشرين من الشهر الجاري، تتواصل الدورة الثالثة عشرة من **المهرجان الدولي للشعر والفنون** بالرباط التي انطلقت أوّل أمس الثلاثاء. تتوزّع فعاليات التظاهرة على مدن السمارة، وفاس، ومكناس، وتيفلت، وورزازات، وتارودانت وتتمحور حول **إشكالية التحديث الثقافي بين السيكولوجيا والتراث**.

يُفتتح عند السادسة من مساء الثلاثاء المُقبل، في «مركز كتارا للفن» بالدوحة، معرض **بين الحواف** للفنان التشكيلي التونسي **طاهر جاوي** (1978)، والذي يستمر حتى العشرين من الشهر المقبل. تتنوّع أعمال الفنان بين الزيت والأكريليك وألوان الباستيل، وتنتمي إلى التعبيرية التجريدية حيث الألوان عنصر أساسيٌّ فيها.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

عون الله أبو صفية روائي

النزوح ليس سياحة في الوطن

عدت إلى أرض الوطن في العام 1996، إذ كنت من ضمن مجموعة من الأشخاص الممنوعين من العودة إلى قطاع غزّة والضفة الغربية بعد اتفاق أوسلو. تقابلتُ مع الرئيس الراحل ياسر عرفات في العام ذاته، ووعدني أن يعيدني إلى الوطن، وبالفعل أرسل في طلبي بصفتي عضواً في «المجلس الوطني الفلسطيني»، وفعلاً توجّهت عبر الأردن إلى جسر الملك حسين إلا أن الجيش الإسرائيلي لم يسمح لي بالدخول، وأبعدت مرّة أخرى إلى الأردن حيث مكثت اثنين وأربعون يوماً. في المحاولة الأخيرة التي نجحت، دخلتُ زائراً بتصريح خاص بذلك. هكذا دخلتُ أرض الوطن.

منذ عودتي وضعت لنفسي برنامجاً رياضياً حتى لا يغلبني المرض، إذ إنني عانيت كثيراً وأجريت عملية قسطرة مبكراً، ويتوزع برنامجي الرياضي بين المشي والسباحة. مثلاً؛ في أشهر الشتاء، أمارس رياضة المشي، وقد تصل ساعات المشي إلى أكثر من ثلاث ساعات، وقد أزيدها إلى أكثر من ذلك، بعد أن أصبتُ بمرض السكر. أما خلال أشهر الصيف، فأبدأ من شهر يونيو/ حزيران، فأمارس رياضة السباحة حتى أول شهر ديسمبر/ كانون الأول، وهكذا كانت تمضي أيامي، بالإضافة إلى هوايتي الرئيسية ألا وهي الكتابة.

في يوم السبت السابع من أكتوبر/ تشرين الأول من عام 2023، كعادتي في كلّ يوم، نهضتُ باكراً وأديّت صلاة الفجر، ثم ارتديت ملابس البحر، وخرجت كي ألتقي بصديقي هشام، منزله يبعد عن مكان سكني ما يقرب المائة متر. لقد اعتدت أن أعرّج عليه كلّ صباح وأصطحبه ونذهب سوياً إلى البحر. في ذلك الصباح، عرّجت عليه، وما أن خرج ذهبنا باتجاه البحر، الذي لا يبعد سوى أمتارٍ قليلة، لا تزيد عن المائة والخمسين متراً، وما أن خطونا بضع خطوات وإذا بصوتٍ ضخمٍ يخترق صمت المكان، أخذتُ أنظر إلى السماء فإذا بعددٍ كبيرٍ من القذائف الصاروخية تنطلق متجهة إلى أراضينا المحتلّة، كانت السماء قد امتلأت بالدخان الأبيض، كانت كمية القذائف الصاروخية كبيرةً، فوقفتُ أنا وصديقي هشام ونظرنا إلى بعضنا البعض، ثم أخذ كلّ منا يسأل: ماذا حدث؟ لقد نمنا، ولم يكن هناك أيّ توتّر، أو أيّ شيء يوحي بأي تصعيدٍ محتمل.

سيطر علينا التردّد، وقبل أن نتخذ قرارنا، إما العودة إلى منازلنا أو مواصلة طريقنا صوب البحر، مرّت بنا بعض الحافلات التي تنقلُ الطلاب إلى مدارسهم فأخذنا نستفسر منهم، فأبلغونا بأن المدارس أغلقت بناءً على أوامر وزارة التربية والتعليم. نظرنا إلى بعضنا البعض، وقد استقرّ رأينا على العودة إلى منازلنا، صوت القذائف الصاروخية كان ما زال يملأ السماء، وقبل أن نغادر مكاننا، مرّ أمير المسجد فأخذ يسألنا ماذا حدث، فأخبرناه بأنه هو الذي عليه أن يخبرنا بما يحدث، لم يكترث لنا وحرّك سيارته مسرعاً إلى منزله.

أسرعنا الخطو حتى نعود إلى منازلنا، كي نستمع إلى الأخبار، كنت متأكداً أن العدو سوف يكون انتقامه رهيباً. هشام أسرع إلى منزله القريب من مكان وقوفنا، وأنا غذيتُ خطواتي حتى أصل إلى منزلي، وما أن دخلتُ إلى البناية التي أسكن بها، قابلتُ بعض الجيران الذين أخذوا يسألوني عما يحدث. نظرتُ إليهم نظرةً شاردة، وأخبرتهم بأني لا أعلم شيئاً، كان القلقُ يسيطر عليهم، فكمية القذائف الصاروخية المطلقة كانت كبيرة جداً وغير مسبوقة، فيما سيكون ردّ العدو رداً غير متوقع.

وصلت إلى شقتي فأسرعت إلى جهاز التلفاز، فوجدت زوجتي وابني محمد يتابعان الأخبار، وكانت تبثّ مباشرة من مكان الحدث. في الوهلة الأولى، شعرتُ بالفخر من العمل الذي قام به المقاومون، ولكن بعد قليل أفقتُ من سكرة النصر، فأخذ عقلي يتساءل ويطرح أسئلةً أكثر واقعية.

جلستُ أتابع الأخبار، تارةً عبر التلفاز، وتارة عبر هاتفي النقال. ومع تزاحم الأفكار، ومع الخوف من ردّ العدو، طلبتُ من زوجتي أن تضع لي ركوة قهوة على الغاز، وأخرجتُ علبة سجائري، وأخذتُ أنفث دخانها في فضاء المجلس، وأنا أتابع تصاعد ذلك الدخان، وهو يتصاعد في حلقاتٍ تشبه قلقي.

وتحسباً من أن يقوم العدو بقصف المنطقة، طلبتُ من ابني محمد أن يقوم بفتح نوافذ المنزل حتى لا يتكسّر زجاج الشقة. بدأنا بجمع المستندات المهمّة ووضعها في حقيبةٍ يسهل حملها، وذلك من خبرتنا بسلوك العدو الذي يتعمّد القصف ليلاً، حتى يزيد من كمية الرعب التي يُحدثها القصف. مع المساء، تناولنا بعض السندويشات التي أعدّتها زوجتي على عجل، كنتُ أفكر في ابني محمد وأطفاله، فأين عمر الذي لم يتجاوز الأربعة أعوام، وأين ابنه الآخر الذي يحمل اسمي، والذي لم يتجاوز الستة أشهر، وفكرتُ في الأقارب وفي الجيران.

حاولنا أن نسرق بعض اللحظات كي نغفو، ابني وزوجته اهتمّوا بأطفالهما وذهبا بهم كي يناموا قليلاً، وزوجتي من شدّة الارهاق سرقتْ بعض اللحظات وغطّت في النوم. أما أنا، فتابعتُ جلوسي في صالون المنزل أرتشف قهوتي، وأدخّن سجائري، ولكن على ما أعتقد بأنني استطعت أن أسرق بعض الإغفاءات. كان ما يزيد قلقي هو تأخُر ردّ العدو الذي تعوّدنا بأنه بعد إطلاق القذائف الصاروخية يسارع بالرد، ولكن هذه المرّة لم يردّ، ولذلك ثارت في نفسي شكوكٌ كثيرة من أن ردّ العدو سوف يكون موجعاً، ويتعدى آثر الردود السابقة.

أفقنا جميعاً، وأخذنا ننظر إلى التلفاز، رغم أن الكهرباء مقطوعةٌ عن المدينة منذ مدّة، ولكن البناية التي أسكنُ بها يوجد فيها كهرباء يتمّ توليدها عبر شاشات الطاقة الشمسية.

تابعنا محطّة «الجزيرة» التي لا تزال تبثّ مناظر الهجوم، وكذلك تبثّ تحليلات مختلفة، أتفق مع بعضها وأختلف مع بعضها الآخر. استمررت في متابعة الأخبار تنقّلاً من محطةٍ إلى أخرى، ثم خرجتُ أتفقد الجيران، فمعظمهم كان متوجّساً من القادم، وقبل أن يحلّ المساء دوّى انفجار قوي، هزّ المنطقة فتطاير زجاج نافذة غرفة نومي، بالرغم من اتخاذ الإجراءات المناسبة، ولكن شدّة الانفجار كانت عنيفةً جداً، تيقنّاً بأن العدو يمارس هوايته في قتلنا. كان الانفجار لا يبعد عن المبنى الذي أقيم فيه سوى عشرات الأمتار، الخوف بدأ يتسرّب إلى نفوس الجميع، نمنا تلك الليلة على وقع أصوات الانفجارات، وتراقص المباني من شدّة القصف الذي توالى دون هدوء. وفي اليوم التالي، أخذ العدو يبثّ تحذيراته بأن على سكان مدينة غزّة وشمالها النزوح إلى جنوب وادي غزة، تحت التحذير بأن المنطقة هي منطقة عمليات عسكرية خطيرة، خرجتُ من المنزل لأتشاور مع سكان البناية الذين انقسموا على أنفسهم فمنهم من يريد أن يُخلي خوفاً على الأطفال والنساء، ومنهم من تشبّث بالبقاء في البناية ولحظتها دوّى انفجار هائل ضرب العديد من البنايات منها ثلاث بنايات تتبع عائلة أنسبائي، ثم تواردت إلينا أنباءٌ بأن الصليب الأحمر حضر إلى شركة (ك)، التي تمتلك العديد من الحافلات التي تنقل طلاب المدارس، وأبلغ موظفيها أن يخلوا مكانهم، وأن يأخذوا ما أمكنهم من السكان لأن العدو جاد في تهديده. ازداد قلقنا جميعاً وكبُر.

كان ابني محمد وعائلته يستعدون للتوجه إلى الجنوب، وأخبرته بأنّي سوف أمكث أنا ووالدته في الشقة، رفض ذلك وطلب منا أن نغادر نحن، لأننا كبار في السن ونحتاج إلى من يرعانا ويقوم على خدمتنا، تجادلتُ معه ثم غادر وذهب إلى أحد أصدقائنا واستعار منه سيارة، ثم ذهب إلى بيت أهل زوجته وأتى بهم، لأنهم قرّروا النزوح إلى جنوب الوادي، حضروا جميعاً وبدأ ابني يضغط علي، هو وحماه، من أجل اقناعي بالنزوح إلى جنوب الوادي. أخذتُ أنظر إلى زوجتي مستنجداً بها، ولكنها كانت مع رأي ابنها، نسيبي بدأ يقنعني بالذهاب إذ إنه يمتلك بناية ليست جاهزة، ولكن علينا أن نمضي تلك الليلة بها، لأننا كنا نتوقع أن خروجنا هو خروج مؤقت، ولن يستمر لأكثر من يوم أو يومين، وأنه يعتبرها نوعا من السياحة في الوطن، تحت ذلك الضغط ومحبةً لابني وزوجته ووالدها قررنا المغادرة. لم نحمل معنا أيّ شيء، وخرجنا بالملابس التي نرتديها وبدأت رحلة النزوح إلى المجهول.

لم نحمل معنا أيّ شيء، وخرجنا بالملابس التي نرتديها وبدأت رحلة النزوح إلى المجهول

جيهان أبو لاشين كاتبة

غرفةٌ واحدة لا تكفي

بعد أن نزحنا من مدينة غزّة باتجاه الجنوب منذ أشهر عدّة، صرنا ننامُ سبعةً في غرفة واحدة. كان ذلك بعد نزوحنا التاسع، هرباً من مكانٍ إلى مكان، بحثاً عن الأمان المفقود، أو هرباً من قصف أكيد. بعد أن استقرّ بنا المطاف، في بيت أقارب زوجي، في مدينة دير البلح.

كنّا محظوظين كفاية لنتمكن من الحصول على غرفة كاملة (4×3,5 أمتار). بدا أطفالي ممتنين لوجودهم في غرفة، بخاصة بعد أن أقنعتهم بأننا نازحون VIP، لأننا محاطون بأربعة جدران ويسترنا سقفٌ من فوقنا، ولأنّنا نستطيع استخدام الحمام من أجل قضاء حوائجنا. شعرنا بالذنب تجاه الناس الذين يعيشون في الخيام، بالرغم من أننا حاولنا عمل خيمةٍ، في مرحلة سابقة، ولكننا لم نستطع دفع ثمنها الذي تجاوز ألفي شيكل. شكرنا الله كلّ ليلة، لأنّه سترنا من البرد والمطر والبشر. لم نكن نملك إلا حقائب ظهرٍ صغيرة جداً، تحوي ملابس قليلة جداً.

وفّر لنا أقارب زوجي بعض الأشياء القليلة والضرورية الأساسية لبدء حياتنا البدائية الجديدة؛ بضع فرشات، وأغطية، ومنصب للطبخ على الحطب، وغالون ماء، وطنجرة للطبخ، ومقلاة، وبراد للشاي.. بدت كلّ تلك الأشياء مثل كنزٍ ثمين، لأن نازحةً مثلي، لا تملك إلّا القليلَ وبعض المال، لن تكون قادرة على شراء تلك التفاصيل؛ التفاصيل التي اختفت من السوق بسبب اكتظاظ دير البلح بالنازحين، ولأنّ العشرات، المئات، الآلاف من العائلات النازحة قبلي بدأت مثلي حياة بدائية من جديد، فاختفت تلك التفاصيل من السوق، وإن وجدت فإنها تباع بأضعاف سعرها.

بدأت أنا وأطفالي في هندسة الغرفة، زاوية للحقائب القليلة، زاوية لبعض المونة، زاوية للأغطية، زاوية لأدوات المطبخ. أما الفرشات فقد كنا نضعها في النهار، بحيث تكون مناسبةً للجلوس، وفي الليل نصفّها بجوار بعضها البعض لتكون مناسبة للنوم. ولأن الغرفة تحتوي على بابٍ زجاجي بعرْض نصف حائط، ونافذتينْ زجاجيتين كبيرتيْن، لم يكن من السهل أن نختار مكاناً مناسباً للنوم بعيداً عن الزجاج. فاستسلمنا للأمر، راجين من الله أن يسلمنا، وقد سلمنا إذ استيقظنا ذات مرّة على صوت تكسر الزجاج إثر قصف قريب ارتجفت له كلّ جدران المنزل وكانت قطع كبيرة منها، سقطت بجوار رأس ابني. استمرّ بنا الحال، نعيش في الغرفة الواحدة، لمدة زادت عن خمسة أشهر، زادت خلالها أمتعتنا. بعد وقت قليل من نزوحنا، زادت برودة الطقس، فالملابس التي هربنا بها كانت صيفية، بالكاد (غيارين) لكلّ واحدٍ منا، كان عليّ أن أتدبر الأمر. اضطررتُ لشراء بعض الملابس الشتوية، ونظراً لأنّ البضائع قليلة والأسعار مرتفعة، فقد اشتريت حاجتنا من (الملابس المستخدمة/البالة)، في ما بعد ارتفعت أسعار البالة، ولم نعد قادرين على الشراء منها، فاكتفينا بما حصلنا عليه.

كبرت زاوية الحقائب، واكتظت بما بها. استطعنا الحصول على بعض المونة (المعلبات)، وقد كانت طعامنا الرئيسي على مدار وقت طويل، لأنّ الخضروات لم تتوفّر في السوق آنذاك، وما توفر منها كان باهظ الثمن. حرصتُ قدر الإمكان على الحفاظ على طبق السلطة (بندورة، بقدونس، خيار، جرجير)، في حياتنا اليومية، حتى أحمي أطفالي بالقدر الممكن من خطر المواد الحافظة الموجودة في المعلبات. كان طبق السلطة مكلفاً جداً، ولكنني فضلتُ تكلفته على اضطراري لدفع تكلفة علاجاتٍ (والتي كانت قد نفدت من السوق أيضاً) لوقاية أطفالي من خطر المواد الحافظة، ولأن المطبخ ليس متاحاً لي، كما أشاء، كان عليّ أن أضع المونة في الغرفة. كبرت زاوية المونة واكتظت بها. كنتُ أخشى أن يكسر أطفالي طبقاً أو كأساً من أدوات مستضيفينا، لذلك اضطررتُ لشراء بعض الأكواب، وبعض الأطباق، وما يكفي حاجة سُفرةٍ متواضعة. ومع الوقت، كبرت زاوية أدوات المطبخ أكثر، وصارت تنافسنا على المساحة القليلة المتبقية.

لم تكن أشيائي كثيرة، لكن الزوايا كانت ضيقة. كنّا ننام في صفوف متجاورين: آلاء، ابنتي الكبرى 20 عاماً، ديما 18 عاماً، لينا 17 عاماً، فايز 15 عاماً، هبة 9 أعوام ووالدهم وأنا. كنا ننام متجاورين على الفرشات القليلة، نتشارك الأغطية لتكفينا. وبالرغم من أن الفرشات أقل من عدد الأفراد، إلا أن الغرفة المكتظة بتفاصيل الحرب اكتظت بالفرش، وبأدوات المطبخ وبنا.

في هذا العالم الضيق الذي نعيش فيه، أو في غرفتنا هذه، لا خصوصية يمكن لطفلٍ مراهق، أو لشابة تحب التأمل أن تحصّل عليها في غرفة مكتظة. إذا أراد أحدنا استبدال ملابسه، كان يطلب من الجميع الخروج من الغرفة أو الاستدارة. لم تكن الغرفة الواحدة كافية لتستر انتفاخ بطوننا بالريح بسبب المعلبات، التي صارت طعامنا الأساسي. لم تكن غرفة واحدة كافية لتستر حزننا وغضبنا وخوفنا، أو حتى ضحكنا الهستيري من وقت لآخر. خلال ما يزيد على خمسة أشهر، ازداد اكتظاظ الزوايا، واكتظت قلوبنا بالخوف والقلق والتوتر. أُتخمت الغرفة بنا. وأُتخمنا بها. لكنّنا مصابون بقلق الفقد، كما فقدنا خيارنا في البقاء.

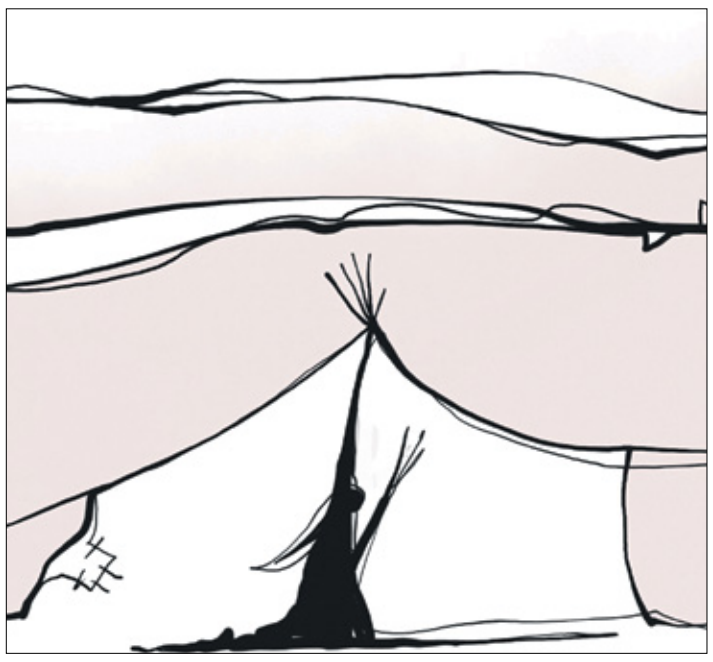

رسم للفنان عماد حجاج

في بيتنا نخشى أن نفقد الغرفة والزوايا والفرشات، والأغطية، ومنصب الطبخ، وغالون الماء، والطنجرة، والمقلاة، وبراد الشاي... لأننا لو فقدناها، سنضطر للبدء من الصفر مجدداً. وربما نضطر للعيش في خيمة. ونفقد خاصية الـ VIP التي أقنعنا أنفسنا بها.

لكلّ نازح نصيبه من الفقد، الحسرة، الألم. عندما نزحت العائلات من بيوتها، ألقت كلّ منها نفسها في حضن الخيارات التي أتيحت لها. بعض العائلات وجدت أقارب لها، أو أصدقاء، أو أناساً لم تعرفهم مسبقاً، لتستقبلها في منازلها أو محالها التجارية، أو فوق الأسطح، أو في زوايا أراضيها الزراعية، أو في حواصل بناياتها. بعض العائلات استطاعت عمل خيمة في الشارع، أو على سفح تلة رملية، أو في ممرّ مدرسة، أو مركز ايواء. وبعضها هربت إلى المدارس والمستشفيات لتجد لها ركناً تأوي إليه. واضطر الكثير من الرجال للمبيت في الشوارع، لأنهم لم يتمكنوا من تأمين مكان يؤوي كلّ عائلاتهم، فأعطوا الأولويّة في الأماكن المتوفرة للنساء وللأطفال ولكبار السن.

انتشرت مراكز الإيواء في كلّ مكان، وفي رفح ودير البلح، على وجه الخصوص. اكتظت الأماكن (الأراضي، الشوارع، المدارس، المؤسسات، المستشفيات، المنازل) بالنازحين. نزحنا أنا وأطفالي لبيت أقارب والدهم في دير البلح. ولأننا نعيش في غرفة في بيت ناس آخرين، كنا حريصين جداً على أن نكون ضيوفاً خفيفين غير مزعجين. وأُصبتُ أنا بمتلازمة الهمس. بدأ فايز بتجاوز مرحلة الطفولة، والدخول في مرحلة الرجولة خلال أشهر الحرب، و قد أصبح صوته أجشّ مرتفعاً، إذا حاول الهمس يصبح مزعجاً جداً، وإذا ارتفع يكون جهورياً جداً. كان الجميع يصرخ عليه بصوت متوتر بأن يصمت كلما تكلم. مما يزيد حاجته للكلام والدفاع والاحتجاج والتوتر. أما آلاء فقد كانت الأشدّ توتراً، وكانت تطلب من الجميع الهدوء والصمت، كلما اشتدّ الجدل أو الخلاف حول أمر ما. إلا أنها كانت تطلب من الجميع الصمت بصوت مرتفع جداً. فأحتجّ أنا على ذلك قائلة بهمس: «ممكن إلي بده يسكت، حدن ما يحكي بصوت عالي»، لم تكن قدرة أبو فايز على التعامل مع الضغط كبيرة، لم يتمكن من كبح غضبه وقلقه من المسؤوليات في أغلب الأحيان .كلما بدأ في لوم أو توبيخ أحدنا لا يتوقف على مدار نصف ساعة على الأقل، وكأنه يقوم بتفريغ كل ما يؤلمه في العبارات التي يقولها، يبدأها بتوبيخ هامس ثم يرتفع صوته تدريجياً، فيزيد من وجعٍ صمتنا أو همسنا أو قدرتنا على الكبت والتحمل. ليهمس لي أطفالي سراً في ما بعد: «احنا بدنا نطيب من الحرب، وبدنا نطيب من بابا كمان».

أما ديما فهي تحرص على الهمس أغلب الوقت، ولكنها تنسى ذلك تماماً كلما قالت شيئاً مضحكاً، أو إن غضبت فتتكشف عن عبارات مجبولة بالكبت والغضب والعتاب، عبارات متتالية مثل رصاصات طائشة تخرج من رشاش خرج عن السيطرة، ثم تصمت وتخرج من الغرفة، لتعلن عن عدم استعدادها لسماع كلمة واحدة زائدة. لينا هادئة أغلب الوقت، ولكنها لم تتصالح قط مع هدوئها ، فهي تحاول التحلّي بالصبر والصمت ولكن بضغط فائق عن قدرتها، لذا فقد كانت تنفجر من وقت لآخر، تهدّد وتتوعّد وتبكي كثيراً. استطاعت هبة (الصغرى) أن تجد قريبة لها، في عمر قريب لعمرها، فانشغلت أكثر الوقت في اللعب خارج الغرفة لتتجنب لعنة الهمس، والصراخ في الداخل، ولكنها كانت تنفجر من وقت لآخر قائلة: «ليش لازم نهمس، احنا بنقول كلام عادي». وفي أوقات أخرى كانت تقول: «ماما أنا بأتحمل مش لأني مش حزينة، لكن لأني بديش أصعب الأمور عليكي». عندما يرتفع صوت والدها بتوبيخ أحد إخوتها، تركض هبة بقلب مذعور لتضع يدها على فمي قائلة: «ماما لا تقولي ولا حرف، لا كلام مليح ولا كلام مش مليح». الهمس والصراخ متناقضان قاسيان مؤلمان، يحزّ كلّ منهما الروح فيقسمها نصفين أو يهشمها لقطع صغيرة. بعد سبعة أشهر من البعد عن بيتنا، عندما يرتفع صوت أحدنا يصرخ به الجميع ليهمس. وأنا المصابة بلعنة الهمس، تكبر أصوات الهمس، والصراخ في رأسي، ويتردّد صداها في الخنادق التي حفرتها الطائرة الزنانة في جمجمتي، فأصاب بالدوار المتكرر. ثم أهمس لنفسي بعبارات متفائلة وأردّد: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. فأحتمل كل ذلك. وأردّ نفسي لمنطقة الصبر والتحمّل والتفهّم. ويبقى السؤال الحقيقي والأهمّ: لماذا علينا أن نهمس حين نكون نازحين في بيوت الآخرين؟

بدا أطفالي ممتنين، بخاصة بعد أن أقنعتهم بأننا نازحون VIP، لأننا محاطون بأربعة جدران